ديمتروف والجبهة الوطنيّة الموحّدة

تمهيد

نشرت « الهدف » سلسلة مقالات مطولة للاستاذ جلال الطالباني ، عن موضوع من موضوعات الساعة ، التي تكتسب اهمية بالغة في هذه الايام، تعني موضوع الجبهة الوطنية التقدمية. والمقالات التالية هي عبارة عن تلخيص موجز جدا ، لاهم ابحاث جيورجي ديمتروف ، وخطبه في « الكومنترن » المتعلقة في موضوع الجبهة الوطنية الموحدة .

ان الحديث عن اعمال ديمتروف ونشاطاته الكرسة لبلورة فكرة جبهة العمل الوطني الموحد، وترجمتها على صعيد التطبيق الفعلي .. ان مثل هذا الحديث لا بد ان ينصرف اولا الى الحزب الشيوعي البلغاري ودوره في هذا المجال . لانه هو القوة الجماهيرية ، التي منحت افكار سكرتير الحزب الشيوعي البلغاري العام ، المضمون العملي على صعيد نشر افكاره وآرائه في جبهة العمل الوطني الموحد ، بين اوساط الجماهير والقوى السياسية في بلغاريا آنذاك .

صحيح ان مبادرات ديمتروف ، لطرح فكرة الجبهة الموحدة ، قد سجلت لزعيم الشعب البلغاري سبقا سياسيا ونضاليا ، في ميدان العمل من اجل قضية الجبهة ، وجعلت موضوعة الجبهة تقترن باسمه ، لدرجة اصبح معها ديمتروف الباحث والمعلم والمرشد الاول في هذا الموضوع .

وصحيح ايضا ان ابحاثه ونشاطاته ، قد اكتسبت اهمية بالغة ، لكونها طرحت فكرة الجبهة الموحدة وبلورة صيغتها بشكل استحوذ على قناعة الجماهير الشعبية والقوى السياسية الوطنية ، فتضافرت جهودها لاخراج موضوعة الجبهة الموحدة ، من حيز الفكرة ، الى حيز التطبيق الفعلي .

وصحيح ايضا ان تكوين الجبهة الشعبية وبعدها الجبهة الوطنية التي قادت الثورة في اوائل الاربعينات يعتبر انتصارا رائعا له ، على صعيد بلغاريا والعالم ، حيث كان ديمتروف ، يتابع موضوع الجبهة الموحدة ، متابعة جعلت منه ابرز باحث وموجه ، بل جعلت منه خبيرا عالميا ، في هذا الميدان ، وانه بقدر ما عمل على بلورة فكرة الجبهة على الصعيد النظري ، فانه وبالقدر نفسه ، لعب دورا كبيرا في رسم الطرائق العملية العديدة ، لامكانية تطبيق فكرة الجبهة الوطنية الموحدة ، في أوضاع وظروف مختلف البلدان ..

هذا كله صحيح ، بيد انه لا يكفي لجعل الحديث متكاملا .

ان الاقتصار على شخصية ديمتروف ودوره النظري ونشاطه العملي فقط ، يجعل من الحديث وحيد الجانب ، لذا فان عرضنا لموضوعات وابحاث ديمتروف . سيكون عرضنا لنشاط الحزب الشيوعي البلغاري، في ميدان الممارسات النظرية والعملية ، المبذولة في سبيل تحقيق فكرة الجبهة الوطنية الموحدة على صعيد التطبيق الفعلي ، بالنسبة لبلغاريا . على ان يتناول الحديث نضال ديمتروف الباسل ومقاومته الفاشية بالعمل الدؤوب من اجل تحقيق فكرة الجبهة الوطنية ليس في بلغاريا وحدها ، بل وفي العالم كله .

وقد استطاع ان يلعب هذا الدور العالمي ، عندما اصبح سكرتيرا عاما للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية (الكومنترن) .

الحزب الشيوعي البلغاري والجبهة الوطنية الموحدة

قاد الحزب الشيوعي البلغاري كفاح الشعب البلغاري التحرري ، على امتداد العشرينات حتى اوائل الاربعينات ، حيث انتصرت ثورته الوطنية الديمقراطية انتصارا كان لقيادة الحزب فيه الدور الاول والحاسم .

ان الحزب الشيوعي البلغاري الذي يتولى الان قيادة ثورة الشعب البلغاري الاشتراكية ، بهدف ايصالها الى نهاياتها الحاسمة ، والانتقال الى الشيوعية ، التي يعيش المجتمع البلغاري اليوم عاداتها وتقاليدها واخلاقها السامية .. ان الحزب الشيوعي البلغاري هذا ، قد سار بدرب شاق حافل بالبطولة والاخلاص والتفاني تجاه جماهير الطبقة العاملة وحلفائها الفلاحين الفقراء .

وفي الاعوام الطويلة الحافلة بالكفاح البطولي والتضحيات ضد الفاشية والرأسمالية ومن اجل انتصار الثورة الاشتراكية ، راكم الحزب الشيوعي البلغاري تجربة ايجابية محددة في بناء جبهة وطنية شعبية بروليتارية موحدة . ولكن الحزب لم يستطع التوصل الى تحقيق فكرة تشكيلها الا بنتيجة تجربته الطويلة وانطلاقه من التعاليم الماركسية ـ اللينينية وتجربته في التطبيق العملي للحركة الشيوعية العالمية وفي مقدمتها التجارب الغنية للحزب الشيوعي السوفياتي .

وفي الكفاح من أجل انتصار الاشتراكية طبق الحزب الشيوعي البلغاري بابداع التكتيك اللينيني للجبهة الموحدة ، بما يتلاءم مع خصائص الحركة الثورية في بلغاريا ، وقد تجلى التطبيق المبدع للجبهة الوطنية وعلى نطاق التجربة العالمية ، في توصل الحزب الشيوعي البلغاري الى تشكيل جبهة وطنية خلال أعوام الحرب العالمية الثانية .

ان افكار الماركسية ـ اللينينية الخالدة حول الجبهة الشعبية الموحدة أصبحت مرشدا لعمل الحزب الشيوعي البلغاري في أعقاب انتصار ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى .

وفي ظروف الحركة الثورية الجبارة بعد انتصار ثورة اوكتوبر الاشتراكية، نفرت الاوضاع بقوة في العالم كله وفي بلغاريا ايضا . واضطرب الطبقة البرجوازية الى اللجوء الى رفض وسائل الديمقراطية البورجوازية واستخدام الوسائل الرجعية المتطرفة كالدكتاتورية الفاشية ، كي تحافظ على سيادتها الطبقية . وفي هذه الظروف ، قدر الحزب الشيوعي البلغاري بصواب ان من الضروري مجابهة سياسة هجوم الفاشية والرأسمالية بالسياسة والتكتيك الماركسي ـ اللينيني للجبهة الموحدة . وكانت البورجوازية البلغارية تستعد لتوجيه الضربة ضد الشعب الكادح . وكانت تعد وتنظم انقلابا عسكريا ـ فاشيا لا للقضاء على حكم حزب اتحاد الفلاحين البلغاري الشعبي الديمقراطي فحسب ، بل ولضرب الحركة الشيوعية والثورية في بلغاريا ايضا . وخلال الاعداد للانقلاب العسكري الفاشي عام ١٩٢٣ توفرت الظروف الموضوعية لتشكيل الجبهة الموحدة . وقام الحزب الشيوعي البلغاري بمحاولة تطبيق تاكتيك الجبهة الموحدة تساعدها وتعينها الاممية الشيوعية . ويتقبل تاكتيك الجبهة الموحدة خطى الحزب الشيوعي البلغاري خطوة الى الامام في تطوره في طريق اللينينية .

وادى سطو الاحزاب البورجوازية على السلطة في ٩ حزيران ـ يونيو عام ١٩٢٣ الى رد شديد عم الكادحين جميعا. فقد استطاع الحزب الشرعية الفلاحية برئاسة الكسندر استمبولي وشنت الحكومة الفاشية الجديدة وسائل الارهاب لا على الشيوعيين وحدهم ، بل وعلى الشعب جمعا . وقامت في بلغاريا سلطة الكسندر دكتاتورية . ووجد السكوت الشعبي عن انتفاضة حزيران ـ يونيو العارمة ضد عام ١٩٢٣ . وقد اتخذ الحزب موقفا خاطئا تجاه تلك الانتفاضة ، وهو موقف « الحياد » ولم يطبق بموذاك تاكتيك الجبهة الموحدة ، الحزب قد اتخذ تلك السياسة شكليا ، لم تكن قد اصبحت بعد مرشدا للعمل(١) .

وعندما تكشفت حقيقة السلطة الفاشية حين فضحتها عمليات القمع الدموية ضد حزيران ، بادر الحزب الشيوعي البلغاري ، بتصحيح موقفه ، بمساعدة اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، وسكرتيرها العام لمع كولاروف ، مبادرة جعلته يسير بدرب جديد وخطة جديدة . وقد تحقق ذلك في الوقت التاريخي الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي من ٥ الى ٧ آب ـ اوغسطس من عام ١٩٢٣ ، حيث قيست بصواب الاوضاع السياسية في البلاد . وقررت اللجنة المركزية للحزب « ان انقلاب التاسع من حزيران ـ يونيو كشف عن ازمة السلطة ، التي لا يمكن حلها الا عن طريق انتفاضة جماهيرية مسلحة من اجل حكومة عمالية ـ فلاحية » . وحققت القرارات المركزية في ذلك القرار عملية لايجاد تحالف سياسي جديد يستلزم ايضا اجراء تبديل في تاكتيك الحزب . وكرس في قرار اللجنة المركزية خلال آب ـ اوغسطس عام ١٩٢٣ ، اهتمام خاص لقضية تشكيل جبهة موحدة . ودعا الحزب الى التعاون كلا من اتحاد الفلاحين البلغاري الشعبي والحزب الاشتراكي الديمقراطي(٢) .

وكان لابحاث جيورجي ديمتروف ، التي جدا في تفهم فكرة الجبهة الموحدة ، والتطبيق السليم لتكتيكاتها ، وبفضل تلك الابحاث ، توضحت لاول مرة في البلاد البلغارية ، فيما بعد ، قيام جبهة موحدة للكفاح ضد الرأسمالية والفاشية ، وأصبح النهج السياسي العام للحزب الشيوعي البلغاري ، مقترنا بفكرة الجبهة والعمل في سبيل تحقيقها .

ان التحليل الذي تضمنته أبحاث ديمتروف عن الظروف الموضوعية الجديدة التي نشأت اثر اخفاق الانقلاب العسكري الفاشي ، كان نقطة ماركسيا ـ لينينيا عميقا . ففي مقالته الهامة « الجبهة الموحدة وهجوم الرأسمال » يقول ديمتروف :

« ان الامر الذي يجعل من الجبهة الموحدة ضرورة ماسة ومباشرة ، هو هجوم الرأسمال الشرس ، قبل كل شيء . ذلك ان الهجوم السياسي منذ التاسع من حزيران ـ يونيو ١٩٢٣ قد أطلق ، مهما كان تقديرنا له ، الى لهذا الهجوم بشكل واضح لا لبس فيه . وهو احس الرأسماليون انهم طليقو الايدي في مبادين نشاطهم :

في الصناعة والتجارة ، في العمل العام وشراء الاسهم ، في الملكية العقارية الكبيرة وفي الزراعة ، فراحوا يعملون بشكل منظم لدك كل الحواجز التشريعية وغيرها من العقبات التي تقف في طريقهم ، ويعملون بدأب لكي نهائيا بعبء الضرائب والتعويضات على الجماهير الكادحة في المدن والارياف .

وقد ظهرت النتائج الاولى لهجوم الرأسمال التاسع ، وحربه التامة في الصرف . فقد انخفض الاجر الحقيقي للعمل ، بينما ارتفعت تكاليف المعيشة ، والغي بالعمال البلغار في اضعاف البطالة وحرموا من لقمة العيش ، بينما نفى الوسائل والمشاريع باعداد متزايدة من العناصر الاجنبية » .

ومع ان اسهب في فضح تجاوزات الرأسماليين الاحتكاريين واستغلالهم وجشعهم ، الذي كان يهدد وجود مستقبل الاغلبية العظمى من جماهير الشعب . بعد ذلك يتساءل : « فهل يكون في مثل هذا الوضع بوسع الاغلبية الساحقة المدعومة ان تقف مكتوفه الايدي وان تنظر بلا مبالاة ولا اكتراث الى مصيرها ؟ وهل ينبغي لها ان تقع فريسة هينة في ايدي الرأسماليين وضحية لهجومهم المسعور ، بسبب البرامج والخلافات السياسية السائدة في صفوفها الان ؟ ومن هو القائد الشعبي الحق الذي تسول له نفسه السماح بذلك ؟)

وبطريقة واضحة جدا وذكية ، تناول الخلافات المستعصية بين القوى والاحزاب السياسية ، التي يمكن ان تتشكل جبهة العمل الوطني الموحدة منها ، تناولا يصنف اسباب تلك الاختلافات تصنيفا بارعا ، فيرجع أهمها الى الاهداف النهائية ، ويطالب بتأجيل البحث فيها وتركها الى المستقبل ليتكفل تذليلها بتقريب وجهات النظر حولها وحسمها .

فهو يقول بصراحه ان جميع الاحزاب تختلف (شكل خاص مع الحزب الشيوعي باهدافها وبرامجها النهجية ومفاهيمها العامة ، وبتكتيكها السياسي) وبعد ان يكشف هذه الحقيقة . ينتقل للتأكيد على ان الخلافات المستعصية بين الاحزاب والقوى السياسية من جهة وبينها مجتمعة وبين الحزب الشيوعي من جهة اخرى (يمكن ان تعزى بالدرجة الاولى الى أهدافها النهائية ، والى سبل تحقيقها ، بينما نقوم بين هذه الاحزاب جميعا وحزب الرأسمال هوة سحيقة ، هوة المصالح المتضاربة جذريا) .. « الهوة التي تفصل بين المستغل والمستغل ، بين العبد وسيده » .

وهكذا ويمثل هذا الاسلوب الواضح والمقنع ، يستطرد ديمتروف بتواضع منقطع النظير ، لبلوغ غرضه .

كان الحزب الشيوعي البلغاري يضم بين صفوفه مائتي الف عامل وفلاح ومثقف ثوري ، ومع ذلك فان ديمتروف لا يخاطب الاحزاب الاخرى بلهجة التعالي ، فهو يتحدث لتلك الاحزاب (بوصفها احزابا للجماهير الكادحة) و (بقدر ما تريد هذه الاحزاب ان تظل امينة لمصالح الجماهير ، فانها لا يمكنها الا ان تقف ، موقف المعارضة العنيدة من الاحزاب الرأسمالية، وان تبحث عن نقاط التقاء فيما بينها من اجل العمل والنضال المشترك) .

هكذا ينتزع ديمتروف الجدل الدائر حول جبهة العمل ، من مأزق الخلافات المستعصية حول الاهداف البعيدة والنهائية ، حيث تحلق المناقشات في اجواء الخيال والتصور للمصير الذي يتهدد الطبقات والاحزاب في حال تعاونها مع الحزب الشيوعي الذي سيقودها للاشتراكية والشيوعية ، ويمثل هذا الخط من المناقشات ، تصرف العقول ، ونوظف الطاقات ، ليس للبحث عن عوامل اللقاء وابرازها ، بل للبحث عن العوامل السلبية التي من شانها ان تباعد بين وجهات النظر وعمق الخلافات فيما بينها ، بحكم ما تثيره من مخاوف لدى الاحزاب الوطنية الاخرى .

على اساس تكريس الخلافات بسببها ، الامر الذي جعل منها عقبة في طريق قيام الجبهة لتدعيم دعوته للعمل الجبهوي ، يتساءل ديمتروف قائلا :

« هل يمكن وهل يجب ان ندع هذه الاحزاب، فاشية الاقلية الرأسمالية ، تسحق الشعب الكادح وتعرضه الى الانحطاط الجسماني والروحي ، وان تترك البلاد في مهب الريح ، وفي الفوضى ، او تدعها لقمة سائغة للغزاة الاجانب ، وللرأسماليين المعطشين الى الثراء ولمفكريهم والمدافعين عنهم ، بسبب الخلافات والجدل حول مسالة التاميم والملكية الاجتماعية او حول اشكال الحكم الشعبي المقبل ، مثلا ؟

ومن هو ذلك الزعيم الزراعي او الاشتراكي الديمقراطي او الراديكالي ، الذي لم يقطع صلاته بالشعب ، ويجرؤ على دعم مثل هذه الذهنية الباطلة الحمقاء ؟

وفي معرض مناشدته للحزب الاشتراكي الديمقراطي ، والحزب الراديكالي ، اللذين دخلا في حكومة ائتلافية مع الانقلابيين الذين اطاحوا بحكومة ستامبولسكي زعيم الاتحاد الزراعي الشعبي ، وفي مناشدته لهما بأن يتخليا عن تحالفهما مع الفاشيين ، يتساءل : « هل سيفهم هؤلاء ان المصالح الحيوية للجماهير الكادحة ، تملي عليهم ان يضعوا حدا لائتلافهم المادي للشعب مع الاحزاب الرأسمالية ـ الائتلاف الديمقراطي والليبرالي العومي ، وان يكفوا عن اداء الدور المشين ـ دور ورقة التوت لستر عورات الرجعية البورجوازية والفاشية الفاضح، الفاضحة ، ويتبنوا شعار الحزب الشيوعي ـ جبهة الخلاص الموحدة ؟ » التي يقترحها الحزب الشيوعي باعتبارها الحل المباشر والقادر على تحمل مسؤولية مجابهة المسالة الكبرى التي كانت تطرحها الازمة السياسية المتفاقمة في بلغاريا آنذاك ، والتي « هي مسالة السلطة .

لمن ستعود السلطة في هذا البلد ـ بلغاريا : هل للاقلية الرأسمالية ، أم للاغلبية الساحقة من الشعب الشغيل ؟ وبعبارة اخرى من الذي ينبغي ان يقرر مصير الشعب والبلاد ؟ وبقود التطور الاجتماعي : الطبقة الرأسمالية ، أم الشعب الشغيل ؟ » .

■ البقية في العدد القادم ■

كتابان لا بدّ من قراءتهما الآن

* الانتفاضة المسلحة

بقلم : ا. نيوبيرغ

(٧٥٠ ف.ل.)

* حرب الانصار

بقلم : أوتو هيلبروت

(٥٠٠ ف.ل.)

ترجمهما المقدم الهيثم الايوبي

نشرتهما دار الطليعة - بيروت